خواطر
حول سورة الملك

أ.د. السيد عبدالحليم محمد حسين

شبكة الألوكة
www.alukah.net

خواطر

حول سورة المُلك

أ.د / السيد عبد الحليم محمد حسين

فضل سورة المُلك

روى أحمد عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: "إن سورة فى القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها حتى غفر له، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾".

(أهل السنن الأربعة) وقال الترمذى: هذا حديث حسن وصححه الألبانى.

خواطر حول سورة المُلك

الكل يعلم أن خير الله عظيم، ونفعه عميم، وعطاءه بلا حدود وقدرته محيطة بكل شيء، فإذا أعطى أَدْهَش، وما طالبنا بشيء إلا بطاعته، لأنه خلقنا ليسعدنا، وخلقنا لجنة عرضها السموات والأرض، فالكون مبنى على إسعاد الإنسان، ومبنى على العطاء، والطاعة هى سبب العطاء الأبدى إلى يوم القيامة. فـ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ﴾ (سورة المُلك: ١)

* تبارك بمعنى تعاظم وتعالى وتقدَّس وتمجَّد، فكُلُّ شيء بيده مَلَكَ كل شيء خلقا وتصرُّفا ومصيرا: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣ ﴾ (سورة هود: ١٢٣)

* تنزه الله عما لا يليق به فى معاملة النفوس، وكثر خيره، وعظمت قدرته فى تدبير الأجسام. فمن أدق الأشياء التى تحتاج إلى تفكر وتدبر: حركة الإنسان، فنقطة دم صغيرة إذا تجمدت فى أحد أوعية الدماغ، فقد الإنسان حركته. فالحركة بيد الله عز وجل، وحينما يفقد الإنسان حركته يضيق به أقرب الناس إليه. وقد يتمنَّوْن له المَوت، ولذلك كان من دعاء النبي ﷺ

الذى فى سنن الترمذى عن ابن عمر "ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أبقيتنا، واجعله الوارث منا".

* ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ يُحيي ويُميت، ويُغنى ويُفقر، ويُعطى ويمنع، ويعز ويذل قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧ ﴾ (سورة آل عمران: ٢٦ ـ ٢٧)

* قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢ ﴾ (سورة المُلك: ٢)

المَوت ليس عدما مطلقا، ولكنه عدم نسبي، فهو انفصال الجسم عن النفس، وعن الروح، فالإنسان له جسم هو وعاء له. وله نفس هى ذاته، وفيه قوة محركة هى الروح، فالنفس تذوق المَوت بخلع الوعاء الذى كانت بداخله، وتنتقل من حال إلى حال، فليس المَوت نهاية الحياة على الإطلاق،

الحياة الدنيا تنتهى بالمَوت، والمَوت بداية الحياة الأبدية الآخرة التى تنتهى بالبقاء. فنحن نحيا لنموت، ونموت لنحيا، والعاقل هو الذى يعد العدة لذلك. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٩)

* ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ ليمتحنكم، فإن علة وجودنا فى الأرض الامتحان والابتلاء. فكما أنك تختبر الذهب على النار لتكشف زيفه، كذلك الحياة تظهر ما فى الناس. فالناس معادن كمعادن الذهب والفضة، فهناك الغث والسمين، وهنالك النفيس والخسيس، فهناك إنسان كالجوهرة بأخلاقه، وعدله، وإنصافه، وَوَرَعِهِ ورحمته، وحبه للخير، وهناك إنسان يعيش كالطحالب، يعيش على أنقاضِ الناس، فيبنى مجده على أنقاضهم، وغناه على إفقارهم، وحياته على موتهم، وعلة الحياة الابتلاء، فكل شىء تنطوى عليه سوف يظهر، فالكريم يظهر كرمه، واللئيم يظهر لؤمه، والبخيل يظهر بخله، والسخى يَظْهر سخاؤه، والمُستقيم تظهر استقامته، والمُنحرف يظهر انحرافه، والصادق يظهر صدقه، والكاذب يظهر كذبه.

* فالإنسان خلق للعمل الصالح، لأنه ثمن الجنة، فالسر من وجودك أن تعمل عملا صالحا يصلح للعرض على الله عز وجل، كى يكون سببا لدخولك الجنة، لذلك حينما يموت الإنسان لا يندم إلا على شىء واحد، وهو تقصيره فى العمل الصالح.

والدليل: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ (سورة المُؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠)

* فالإنسان مُمْتَحَنٌ فى كل دقيقة بكل عمل، مُمْتَحَنٌ فيما أعطاه الله، وفيما حَرَمَه، فهو مُمْتَحَنٌ بالغنى، وبالفقر، وبالصحة، وبالمَرض، وبمعاملته لزوجه، ووالديه، والناس أجمعين، وَطِّنْ نَفْسَكَ على أنك مُمْتَحَنٌ فى كل لحظة، وفى كل حال، وفى كل مكان، وفى كل زمان. قال تعالى ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ (سورة العنكبوت: ٢)

* تأمل فى المَخلوقات لتتعرف على الله:

* ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾﴾ (سورة المُلك: ٣ ـ ٤)

هذه دعوة لانطلاق الفكر لمَعرفة الله عز وجل من خلال صنعته.

* ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ فالشمس والقمر، والنجوم والكواكب من السماء، وكل ما علاك فهو سماء. وكلمة ﴿سَبْعَ﴾ عند بعض العلماء تدل على الكثرة لا على العدد المَحدود، فيفيد العدد سبعة ومضاعفاته، فهناك طبقات من السماء لا يعلمها إلا الله.

* ﴿طِبَاقًا﴾ هذه الكواكب التى تدور حول الشمس ويطلق عليها المَجموعة الشمسية، فالمَقصود بالسماء هنا: الطبقة، فالطبقة التى فيها القمر سماء، وكذلك التى فيها المَريخ، والتى فيها عطارد والمُشترى وزحل، وهذه النجوم السيارة سماوات، والطبقات بعدها سماوات، فكم مجرة فى هذه السماء، المُكتَشَفَةِ تقريبا: مليون مليون مجرة،! فكم نجما فى المِجرة؟ مليون مليون نجم. وكل نجم له حجم، وله سرعة، وله مسار مغلق ويدور حول نجم آخر بنظام من التجاذب عجيب!

إن أقرب نجم ملتهب إلى المَجموعة الشمسية بعده عن الأرض أربع سنوات ضوئية فلو تخيلنا طريقا إلى هذا النجم المُلتهب، لاحتجنا إلى خمسين مليون عام كى نصل إليه.

إذًا كل سماء فوقها سماء، ولكل واحدة بحوث طويلة لا تنتهى، وكل سماء لهَا ميزات تخالف الأخرى ... فعندما تكون درجة الحرارة فى الأرض مثلا خمسا وأربعين فتلاحظ وأنت فى الطائرة أن درجة الحرارة خارجها وهى على ارتفاع ثلاثة وأربعين ألف قدم ... خمسون تحت الصفر ... معنى هذا أن هذه السماء غير تلك السماء ... هذه السماء فيها ضغط جوى ترتاح فيه، أما فوق: فالطائرة تُحْقَنُ ثمانية أمثال حجمها من الهَواء من أجل أن ينشأ فيها ضغط جوى مُسَاوٍ لضغط الأرض الجوى، وإلا فالدم يخرج من الأذن، ويضيق الصدر. إذًا كلما صعدت إلى السماء وجدت العجب العجاب.

* ومعنى التفاوت فى قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ أن كل صنع الله متقن، ووجد لغاية. قد تقول: أليست النملة تتفاوت مع الفيل؟ والسمكة الصغيرة تتفاوت مع الحوت الأزرق الذى يزن مائة وخمسين طنا؟ فالحجوم متفاوته، ولكنه ليس المَقصود فى التعقيد أيضا فالتعقيدات متفاوته، فهناك حيوان وحيد الخلية كالمُتحور الزحالى، والإنسان فى دماغه فقط مائة وأربعون مليار خلية! وفى قشرة دماغه أربعة عشر مليار خلية ... وهناك تفاوت فى الحواس، ففى حاسة البصر:

حواس عقدة عصبية، وفى شبكة العين مائة وثلاثون مليون مخروط وعُصَيَّة، تُفَرِّقُ بين درجتين، من ثمانمائة ألف درجة ... لكن الصقر يرى ثمانية أمثال الإنسان ... والكلب يشم أضعاف شم الإنسان ... وهناك تفاوت فى القيم، أى أن هناك حيوان غالٍ جدا ثمنه مليون، وحيوان آخر قتله يحتاج إلى مليون.

فليس إذا التفاوت فى الحجوم، والأشكال، والألوان، والحواس، لكن معنى التفاوت فى الآية: هو التفاوت فى الصنعة: قال تعالى:

﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾ (سورة النمل: ٨٨)

انظر إلى (فرخ الطير) يحتاج أن يخرج من البيضة، فينشأ على منقاره نتوء مُؤَنَّفٌ كالإبرة تماما ليكسر به البيضة، وبعد حين يضمر هذا النتوء وتنتهى مهمته.

* ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ﴾؟ هل ترى من خلل أو تباين فى صنعة الله؟ إنها صنعة متقنة، ما بعدها صنعة.

* ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ أى: كرر النظر مرتين ومرات وابحث عن خلل

* ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ ﴾

سيرجع مبهوتا مشدوها متضائلا، مهما حاول البصر أن يبحث عن خلل فى خلق الله لا يجده! ولن يجده، فليس فى الكون كله أدنى خلل.

مثلا هذه الزائدة الدودية فى الجسم تسميتها خاطئة، والاسم الصحيح لهَا هو: الذَّائدة الدودية يعنى المُدافعة، فهناك عالم كبير من علماء التشريح فى أمريكا قال لطلابه قبل ثلاثين عاما: إن الغدة الصنوبرية غدة لا فائدة منها، ولا تعني شيئا، هى غدة فى وسط الدماغ حجمها كحجم حبة الذرة الصفراء تنتج هرمونا ، ... والآن اكتشف أن هذه الغدة من أخطر الغدد، فمفرزاتها موجودة فى كل كائن حي حتى النبات والمَخلوقات البسيطة كوحيدة الخلية فهى فى النبات والحيوان والإنسان، والهَرمون هو هو، لهَا علاقة بمكافحة الأمراض والجراثيم ... وهناك نحو ثلاثمائة بحث علمى حول هذه الغدة، فلا شيء زائدا فى الكون أبدا، بل كل شيء متقن غاية الإتقان، وإن شئت أعد النظر آلاف المَرات، فلن تجد خللا.

* ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ (سورة المُلك:٥)

هذه المَسحة الجمالية التى جعلها الله عز وجل فى الكون لهَا مهمة خطيرة جدا: هي أن الله سبحانه وتعالى إذا حدثنا عن الجنة، وأراد أن يحببنا بها فوصفها لنا، ولم يكن فى الأرض مواطن جمالية فلا يمكن أن نفهم هذا الحديث إطلاقا، لأن اللغة تثير صورا وتجارب وخبرات سابقة فى نفس الإنسان، ولو لم يكن فى الذهن هذه الصور سابقا لا يمكنه أن يفهم مدلولات اللغة، إذ لم يطابق اللفظ المَعنى الذى فى الذهن، فالمَواطن الجمالية فى الأرض، من سماء مزدانة بالنجوم، وجبال خضراء، وبساتين غَنَّاء، وجداول فَرَّاقة، وبحار رقراقة واسعة، وأنهار عذبة صافية، لهَا مرتكزات من واقع الحياة لأوصاف الجنة.

وربنا سبحانه وتعالى زين السماء الدنيا بمصابيح وهى النجوم التى نراها بأعيننا فى السماء الدنيا.

وهذه النجوم لهَا ثلاث وظائف حصرا: فالأولى: أنها مصابيح، والثانية: أنها رجوم للشياطين، والثالثة: أنها علامات نهتدى بها فى ظلمات البر والبحر.

يقولون: إن عدد النجوم التى ترى بالعين المُجردة لا يزيد على عشرة آلاف نجم ولكن تقدير علماء الفلك أن هناك: مليون مليون مجرة، وفى كل مجرة مليون مليون نجم ... سبحان الخالق العظيم!

وإن الشياطين كانت تصعد إلى السماء لتسترق السمع فعندئذ يتبعها شهاب ثاقب ليرجمها ... فليس النجم هو الذى يلقي على الشيطان كليا، وإنما هو جزء من النجم، وهو شهاب يلقى على الشيطان الذى شط به السير عن منهج الله سبحانه وأراد إغواء البشر. وأراد أن يسترق السمع فيحرقه ومصيره إلى عذاب جهنم.

* ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُواْ ﴾ فى النار ﴿ سَمِعُواْ لَهَا ﴾ للنار ﴿ شَهِيقًا ﴾ كشهيق الدابة. أى أنها تنتظرهم، وللكفار شهيق حين يلقون فيها. ﴿ وَهِىَ تَفُورُ ﴾ وتغلي من شدة غيظها على أولئك الذين غفلوا عن ربهم فى الحياة الدنيا، وأساؤوا إلى خلقه، حتى إن هذه النار ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ أى تتفرق وتتقطع من شدة غيظها، وكأن للنار نَفْسًا مدركة تغتاظ من هذا الكافر الذى جحد نعم الله سبحانه.

* ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ أى : ما الذى جاء بكم إلى هنا؟ وما الذى أوصلكم إلى هذه النار؟ أين عقولكم؟ ألم يأتكم من ينذركم ويخوفكم؟ ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا

نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾ ﴾ أقوال الكفار اليوم إذا دعوا إلى الله عز وجل قالوا: هذه دعوات غيبية، ونحن واقعيون، وهذا الذى يدعوكم إلى الله له حظوظ، وله نيات خفية، وله مطامع فى الدنيا، فيطعنون بالذى يدعوهم، ويسفهون شخصيته، وهذا حال أهل الكفر فى كل عصر، وفي كل مصر، قالوا عن النبى ﷺ إنه مجنون، وساحر، وكاهن، وكذبوا دعوته، وتصور لو أن نبيا جاء فى هذا العصر لسمعت عنه العجب العجاب فقرأت تحليلات،من علماء النفس، وتحليلات من بعض الدارسين للتاريخ ليفهموه على أية طريقة هم يريدونها، فالكفر أحيانا يفلسف، والإنسان حينما يعرض عن منهج الله يستخدم الفكر لرد الحق، ولفلسفة الشر، ولتزيين الباطل، ولتغطية الانحراف.

* ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ (سورة المُلك: ١٠ ـ ١١) هذه مقولة الكفار فى النار، جحدوا الدليل الإخبارى، وأهملوا الدليل العقلى. والإنسان لا يصل إلى الله إلا بهما، فمن خلال التأمل فى الكون نتعرف إلى الخالق،

وعن طريق الوحي، وهو الخبر الإلهى نتعرف على حقيقة الدين والتدين، والكفار رفضوا الدليلين.

* ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ أنهم كانوا بعيدين عن إعمال عقولِهم فيما خلقت له، وإن إصغاء السمع للدليل الذى جاءهم الوحي به، الذى يكشف لهُم كل ما عجز العقل عن إدراكه، فكانوا فى أصحاب السعير، ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ (سورة المُلك: ١٢) الآخرة غيب، والجنة غيب، والنار غيب، أما الدنيا فمحسوسة ملموسة مسموعة مرئية ... والآخرة وما فيها من مواقف كلها غيب ... والإنسان إما أن يخاف بعينه، أو أن يخاف بعقله، فإذا هبط مستواه خاف بعينه، وكلما ارتقى مستواه خاف بعقله. فالذى تَقَرَّبَ إلى الله من خلال الكون، وَتَعَرَّفَ منهجه وَطَبَّقَهُ، وخاف من عذاب ربه قبل المَوت، وقبل أن يصل إلى النار ... هذا إنسان خشى الله بالغيب ... وما من إنسان على وجه الأرض رأى العذاب إلا وآمن.

والدليل: فرعون ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ﴾ (سورة يونس:٩٠)

فكل إنسان كان كافرا أو غير كافر، إذا جاءه المَوت، كشفت له الحقائق كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢ ﴾ (سورة ق:٢٢)

والبطولة لمَن خاف بعقله، فيكتشف الحقائق قبل المَوت، ويؤمن قبل فوات الأوان أولئك ﴿ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢ ﴾ مغفرة للذنوب، وأجر عظيم عند علام الغيوب.

* ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤ ﴾ (سورة المُلك: ١٣ ـ ١٤)

أنت مكشوف عند الله، يعلم سرك ونجواك، ويعلم ما أخفيته، وما يخفى عنك، فهو الخالق، ألا يعلم من خلق ؟ إنه معك أينما كنت ، لكن دون أن تشعر، فهو سبحانه لطيف، وهو مطلع عليك، خواطرك يعلمها، ونياتك يعلمها، وتفكيرك مكشوف عنده، ونوازعك، والبواعث والأهداف،

والتصرفات وكل شيء يعتلج فى نفسك، الله عز وجل مطلع عليه، خبير به. لكنه لطيف بك.

* ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ (سورة المُلك: ١٥)

الأرض ميسرة مسهلة مستوية، مُمَهَّدة، فكيف سنزرعها لو كانت تربتها صخرية؟

والجو فى الأرض مناسب، والهَواء مناسب، ونسب الأكسجين إلى الآزت نسب متوازنة، وقد فجر الله من الأرض الينابيع، وأودعها فِلْزَاتِ المَعادن، وخلق البذور، وأرشد الإنسان إلى زرع النبات، وإلى جني الثمار، فسبحان ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢﴾ (سورة الأعلى:٢)

فالأرض مهيأة تهيئة تامة لحياة الإنسان ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠﴾ (سورة الرحمن:١٠) أى وضعها للإنسان فى المَقام الأول.

كل شيء مذلل لك فى الأرض فما دورك؟ وما مهمتك؟ ﴿فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ أى: تحركوا، فما عليكم إلا أن تمشوا فى مناكبها، وخذوا منها ما يكفيكم، ولا تطلبوا ما يطغيكم وعش فى الدنيا كأنك غريب، أو

عابر سبيل، ولاتجعل الدنيا أكبر همك، ولا مبلغ علمك ... ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ من رزق ربكم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ﴾ (سورة الروم:٤٠) وجاء الفعل هنا ماضيا، وله معنى دقيق جدا، أى حينما خلقكم، رزقكم، فلا تقلقوا على الرزق ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ (سورة الزمر:٣٦) بلى، الله عز وجل هو الرزاق، وجعل أجل الإنسان ورزقه متعلقين به وحده، فلا يستطيع إنسان كائن من كان أن يقرر أجلك، ولا رزقك على وجه التحقيق: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ فالله الذى سخر من أجلك ما فى السموات والأرض قادر على أن يعيدكم خلقا آخر ثم يحاسبكم على الصغير والكبير، والفتيل والقطمير.

* ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨﴾ (سورة المُلك: ١٦ ـ ١٨) على أى شيء يعتمد الإنسان حينما يعصى الله سبحانه؟ ألا يسمع عن أخبار بعض الزلازل. كم من بلدة مستقرة تعيش فى بحبوحة، بأبنية شاهقة، جاءتها هَزَّة من الاهتزازات فجعلتها قاعا صفصفا لا ترى فيها

عوجا ولا أمتا ... فالذى يأمن مكر الله مغفل، بِأَيَّةِ لحظة يمكن أن يأتى انتقام الله، ويقع وعيده، فمن يضمن للذين غرقوا فى المَعاصى والآثام أن يعيشوا؟ ومن يضمن لهُم أن تبقى بيوتهم هي هي ؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (سورة الأعراف:٩٩)

قد تأتى ريح فيها حجارة، أو تمطر السماء حجارة، كما أهلك أبرهة الحبشى، وقوم لوط.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ﴾ (سورة الأنعام: ٦٥)

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أى: كيف يكون عذابى. فالله سبحانه كلما أرسل رسولا إلى أمة كذبوا هذا الرسول، فأذاقهم الله العذاب الأليم، واستحقوا الهلاك. ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فالله إذا أنذر أعذر.

* ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ (سورة المُلك: ١٩)

فكما أن الله جعل الأرض ميسرة فذلك لنمشى فى جنباتها كذلك جعل الجو مذللا للطير يطير فى أجوائه كيفما شاء.

إن قوام الطيران الريش، وفى جسم الطائر ما يزيد عن خمسة وعشرين ألف ريشة، والريشة خفيفة الوزن، متينة القوة، وكل شيء سواها إذا أردت أن تقويه زاد وزنه! وفى الريشة الواحدة ما يزيد على مائة ألف شارب، ولكل شارب شويربات، يبلغ عددها بضعة ملايين، ولكل شويرب كلاليب تجعل هذه الشويربات والشوارب سطحا أملس يقاوم الهواء! فسبحان الخالق المُبدع، وهذا الطائر يطير باستمرار، وحين يستنشق الهَواء فهو كالآلة التى تعمل باستمرار، ولا بد لهَا من تبريد، ولذلك يتغلغل الهَواء الذى يستنشقه أنحاء جسمه ليبرد عضلاته.

فكيف يوفر الطائر طعامه؟ أودع الله سبحانه فى هذا الطائر قوة إبصار، تزيد ثمانية أضعاف على قوة إبصار الإنسان، فما السبب فى ذلك؟ إعانة له على توفير أكله، فلو أن بصره كان قاصرا لَمَا استطاع أن يرى طعامه من مسافات شاسعة فى الجو فينزل ليأكل فلا يجد طعاما فيعود.!

إن طيران الطائر، وتحليفه فى الأجواء، وانتقاله من قارة إلى قارة ومن شمال الأرض إلى جنوبها، ومن جنوبها إلى شمالهَا بلا بوصلة، ولا توجيه ولا خارطة، هذا أكبر دليل على قدرة الله، وعظمته ... فكيف يطير الطيار؟ هناك محطات فى الأرض تبث للطائرات أماكن طيرانها، فالطيار يعرف دائما أين هو على سطح الأرض، وفى أى مكان فى العالم، وأن هذه المَحطة تقع على خط طول كذا، وخط عرض كذا، ولا يمكن للطيار أن يعرف أين هو إلا عن طريق بعض الأجهزة، ليس هناك طريقة ثانية.

فلهذا يهتدى فى الليل لأن معه ردارا، ومعه أجهزة إنذار ومعه أجهزة تحكُّم أما الطائر فهل يتلقى من أجهزة أرضية إعلاما بمكانه فى السماء؟

من يدله على طريقه؟

هناك طائر يطير سبع عشرة ساعة من دون توقف!! وطائر يطير أكثر من اثنين وعشرين ألف كيلو من الشمال إلى الجنوب!! والشيء الذى حير العلماء حتى لم يستطيعوا أن يجدوا له جوابا، هو كيف يهتدى هذا الطائر الذى يطير إلى هدفه؟ هل عن طريق التضاريس إنه يطير فوق سطح البحر من دون تضاريس! فهل عن طريق أشعة الشمس؟ إنه يهتدى إلى هدفه من دون أشعة الشمس ليلا.

فعن طريق ماذا؟ ليس هناك أى نظرية ثابتة فى موضوع حركة الطائر فى السماء،وما من نظرية طرحت لاهتداء الطائر فى طيرانه ألا وثبت بطلانها. لذلك يقول الباحثون: هناك قوة خفية توحي لهَذا الطائر بخطة سيره، لأن الطائر يقطع من سبعة عشر ألف كيلومتر إلى عشرين ألف كيلو متر، فلو أنه انحرف فى طيرانه درجة واحدة لابتعد عن مقصده مسافات كبيرة. القوة الخفية التى يقولون عنها إنها تسير الطير تتبلور فى أن الله تعالى هو الذى يتولى بذاته هداية الطير إلى هدفه، بدلالة الحصر فى قوله تعالى: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ فالآية الكريمة فسرت اللغز المُحير الذى حار فيه العلماء.

إن طير الطيران آية عظمى من آيات الله، فهناك موسوعة علمية كاملة عن الطيران كتب فى مقدمتها ملاحظة تثير الدهشة ، تقول:

"إن أعظم طائرة صنعها الإنسان تبدو ساذجة وسخيفة أمام الطائر"!

فهناك طائرة تزيد سرعتها على سرعة الصوت، وهناك طائرة تحمل ستمائة وخمسين راكبا، يأكلون ويشربون ويستمتعون، وهناك طائرات بأحجام كبيرة كأنها مدينة تطير، ما هذا النظام البديع؟! الطيران معقد جدا، بل هو خلاصة علم الإنسان، فستمائة وخمسون راكبا يركبون فى مكان واحد،

ويجلسون على مقاعد وثيرة، وتأتيهم الأطعمة الطازجة، ويستمتعون بكل شيء، وهم على ارتفاع أربعين ألف قدم فى الجو! هناك علم كبير جدا! لأن ضغط الجو فى الطائرة لا يسمح للإنسان أن يستنشق الهَواء، فلا بد أن تحقن الطائرة ثمانية أحجامها من الهَواء كى يكون الضغط على هذا الارتفاع العالى مساويا لضغط الأرض، والأمور معقدة جدا، إنها ثمرة علم البشرية ومع ذلك تبدو سخيفة جدا وساذجة أمام الطائر ...! فإذا ركبت طائرة فاسجد لهَذا الإله العظيم الذى خلق الطائر. آية الطيران للطير وحدها من آيات الله الدالة على عظمته.

وقد قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ﴾.

السمك لا تقل عنها أهمية، أو لم يروا إلى الأسماك تحتهم؟

سمك السلمون ينتقل من شواطئ أوربا باتجاه الغرب إلى رؤوس الأنهار فى أمريكا، فيعود إلى النهر ذاته ليموت هناك، وحينما يدخل إلى النهر الذى خرج منه، يعاكس تيار النهر، فأحيانا يصعد فى الشلال من الأسفل إلى الأعلى، ليصل إلى هدفه، وهو كالطائر، لو انحرف درجة واحدة، لجاء إلى أمريكا الشمالية، ولو انحرف درجتين نحو الجنوب لجاء إلى أمريكا الجنوبية.

وهناك سمك كالأفعى ينطلق من ينابيع النيل، ليصل إلى البحر المُتوسط، فيتجه غربا إلى مضيق جبل طارق، وشمالا ليحاذى أسبانيا، ثم يدخل مضيق المَانش ليموت فى بحر الشمال، فمن يهديه إلى طريقه؟ ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

(سورة طه:٤٩ ـ ٥٠)

فهذه السمكة زودها الله بخط فى قِسْمِهَا الأعلى تعرف به فى أى لحظة أين هى من سطح المَاء، وهذا الخط كجهاز ضغط، أنبوب مفرغ من الهَواء ... وزودها الله أيضا بجهاز توازن تعرف به أين جهتها؟ نحو الأعلى أم نحو الأسفل؟ فهناك حفرة صغيرة فى رأسها فيها بعض حبات الرمل، وأعصاب حساسة، فإذا انتقلت حباب الرمل إلى جهة أخرى فهى مقلوبة، وبذلك تعرف وضعها ومكانها.

هذه هداية الله للحيوان، وأما هداية الله للإنسان، فقد أودع الله فيه هذا العقل الذى جعله أكرم مخلوق على وجه الأرض، وهو أداة معرفة الله، وهو مناط التكليف. فهل يلحد الإنسان بعد هذا الصنع العظيم!

* ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ (سورة المُلك: ٢٠ ـ ٢١)

آيات القرآن الكريم مترابطة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ (سورة هود:١) . فالإحكام: هو الترابط، فالحق سبحانه حينما قال فى الآيات السابقة: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ كأنه قال هنا: فإن كنتم قد أمنتم، فلعلكم تعتمدون على جند لكم يحمونكم من هذا العذاب، من هؤلاء الجند الذين سينصرونكم من عذاب الله عز وجل:

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ (سورة الرعد:١١)

قَالَ تَعَالَى:﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ (سورة فاطر:٢)

وأخرج الترمذى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله

لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك".

ألا يتذكر صاحب المَعاصى والآثام أن له ربا سيؤوب إليه؟ ألا يعتبر بهلاك الأمم السابقة؟ فماذا ينتظر؟ أخرج الترمذى فى سننه عن أبي هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: "بادروا بالأعمال سبعا، هل تنتطرون إلا فقرا منسيا، أو غنى مطغيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر" .

فالإنسان ضعيف، ومهما اعتد بقوته وطغيانه وجبروته فحياته متوقفة على نبضات قلبه، فلو توقف القلب فجأة لانتهت الحياة.

وإذا كان المُجرم العاتى يعتمد على عتوه وجبروته فليعلم أن الله عز وجل له عليه أكثر من مليون سبيل. فكل مكان فى الجسم معرض لورم خبيث، بل إن أحدث الأبحاث الآن تشير إلى أن فى الإنسان مورثا متعلقا بالورم الخبيث، فإما أنه مجَّمد، أو يفعل، ولا أحد يعلم فى أى مكان وزمان يمكن أن تنتهى حياة الإنسان. وقد تنتهى بعد سنوات طويلة يذوق فيها العذاب والشقاء.

* ﴿ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٖ ﴾ أى: **يتوهمون شيئا لا أصل ولا أساس له، ويعطون الدنيا حجما غير صحيح.** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ ﴾ (سورة فاطر:٥)

﴿ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥ ﴾ **؟فالإنسان حريص على شيئين: على بقائه، وعلى رزقه، فاعلم أنك حي ترزق، لأن الله شاء لك أن تبقى حيا، وكل شيء أراده الله وقع، فأصل الرزق من عند الله، وزيادته ونماؤه متعلق بالإيمان بالله قال تعالى:**

﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ (سورة الأعراف:٩٦)

﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡۚ ﴾ (سورة المَائدة:٦٦)

﴿ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٖ ﴾ **أصروا على العناد، وتمادوا فى المَعاصى، فالكافر يرفض أمر الله، ويعاند الحق، ويستكبر عن أن يطيع الله عز وجل، إذ**

تنفر نفسه فيبتعد عن منهج الله عز وجل، والمُؤمن يتلقى أمر الله بالرضا والقبول، ويحب الله ويحب طاعته، ويحب أن يقيم شعائره.

﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبّٗا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيّٗا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢﴾ (سورة المُلك: ٢٢)

هذه موازنة رائعة فى القرآن الكريم، ولهَا نظائر، كقوله تعالى :

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨﴾(سورة السجدة: ١٨)

﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥﴾ (سورة القلم: ٣٥)

﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١﴾ (سورة القصص: ٦١)

﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٢١﴾ (سورة الجاثية: ٢١)

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ٢١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ (سورة فاطر:١٩ ـ ٢٢)

ومعنى الآية أن الذى يمشى على غير منهج الله يمشى مُكِبًّا، فى طريق وعْرٍ، غير صحيح، فيه مرتفعات ومنخفضات، وفيه أشواك، وفيه حُفَر، وفيه أكمات يستلزم أن يقع، وطريق الباطل طريق وعرة فيها ألغام كثيرة جدًّا ... والإنسان إذا تفلت من منهج الله فهو كمركبة خرجت عن الطريق المُعَبَّد إلى طريق كلها أحجار وصخور وحُفَر وأوحال ... ولم يقل الله: أفمن يمشى مكبا على صراط مستقيم، لأن الذى يمشى بلا منهج يتحرك هائما على وجهه بعيدا عن أى طريق، فالطريق مرسوم، ومسَّهل، ومُعَبَّد، ومُمَهَّد فمن خرج عنه لا يُسمى ما خرج إليه طريقًا، لأنه أصبح فى أرض وعرة ليست طريقا ... فهذا المَعنى الأول.

المَعنى الثانى: أن الذى يمشى على غير طريق الله كمن يمشى وقد أغمض عينيه فلا بد أن يقع، والإنسان على كل حال يتحرك برؤية

لكن إما أن تكون رؤيته صحيحة أو غير صحيحة، فحينما ينقطع عن الله يفقد رؤيته الصحيحة، فيرى الحق باطلا، ويرى الباطل حقًا

أما إذا كان متصلًا بالله فهناك رؤية صحيحة تهديه إلى سواء السبيل، وهذا نور يقذفه الله فى قلبه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ (سورة الأنفال:٢٩)

* ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (سورة المُلك:٢٣)

الله سبحانه أنشأكم وأعطاكم قدرة تَعرفِّية، وقوة إدراكية من أجل أن تعرفوه، هذه القوة الإدراكية هى: السمع، والبصر، والفكر.

فالأذن تسمع بها الحق، والعين ترى بها الآيات، والعقل يُحاكم ويصل إلى الحقيقة، فالفؤاد إذا جاء مع السمع والبصر، يعنى العقل فأنت تؤمن بالله من خلال عينك حينما ترى بها آياته الظاهرة، وتعرف منهجه من خلال أذنيك حينما يسمع بها الحق، ويمكن أن تصدر أحكامًا صحيحة من خلال عقلك، الذى جعله الله قوة إدراكية.

فالإنسان مخلوق يتميز بأنه يدرك. فهل شكرت ربك على ما أولاك؟

* حاسة السمع: من أدق الحواس، وحتى هذه اللحظة لا يُعرف كيف يفرق الإنسان بين النغم، والضجيج.

فكلاهما صوت، وموجات صوتية، وتبدُّلات فى الوسط المَرن، الذى هو الهَواء، فلولا الهَواء لَمَا كان هناك من صوت.

فرواد الفضاء وهم على سطح القمر يتخاطبون باللاسلكى، لأنه لا يوجد هواء على سطح القمر، فمن خلق الهَواء؟

هذا الوسط المَرن (الهَواء) الذى إذا أحدثت فيه اضطرابا انتقل هذا الاضطراب إلى أذنك، ومن نعم الله أن ذاك الاضطراب يتخامد.

فمن الذى جعل هذين الصِّيوَانَيْنِ بتعاريجهما واتجاه سطوحهما وتنوع أشكالِهما يلتقطان الصوت من كل الجهات يسوقها إلى قناة الأذن فتصطدم بغشاء الطبل - هذا الغشاء المَرن الذى ترتبط به عُظيمات السمع فتكبِّر عظيمات السمع الصوت عشرين مرة ... وإذا كان الصوت فوق الحد المَعقول، فإنها تخفِّضه عشرين مرة، فهل فى عالم الآلات آلة تكبِّر وتُخفِّض فى آن واحد؟! ثم ينتقل هذا الصوت فى دهاليز حلزونية فيها أربعون ألف قوس سمعى، مرتبط بالعصب السمعى إلى أن يصل إلى القنوات، وإلى الأذن الداخلية، وعندئذ يقف العلم عاجزًا عن فهم كيف أنَّنا نطرب للنغم، ونضجر من الضجيج، وكلاهما صوت !

ثم إن هذه الأذن تنقل هذا الإدراك إلى الدماغ فيفسِّره .

وهناك ذاكرة سمعية، فهذه الأذن هى الحاسة الأولى فى الليل، فالإنسان يرى بعينيه إلى أن يأتى حاجز يمنع الرؤية، ولا شيء يمنعه من السمع، فإذا كنت فى غرفة ترى عينك ما فيها، لكن أذنك تسمع أى حركة تقع

فى هذه الغرفة أو خارج البيت، فالأذن تسمع فى المُحيط الأوسع ولو كانت هناك حواجز تمنع وصول الصورة.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۚ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ (سورة القصص:٧١)

فهذه الأذن تتلقف الأصوات، ومن أجل التوافق والتكيف مع المُحيط جعل الله لك السمع والبصر، ولكن السمع له هدف أكبر وأجل، لذلك قدمه فى الآية على البصر، فهو أداة لإدراك الحق، وسماع الخبر الصادق، وسماع الوحي.

* حاسة البصر: أما العين التى حار بها الأطباء: ففيها القرنية وهى غلاف شفاف، سمَّاه الأطباء غلافًا نبيلًا، لأنه لا تعترضه أوعية دموية، فكيف تتغذى القرنية؟ لابد من شبكة أوعية تغذيها ولو أنها كبقية خلايا الجسم، لرأيت الأشياء من وراء الشبكة، فكانت الرؤية غير صحيحة، ولا شفافة شفافية تامة ... لذلك جعل الله خلايا القرنية من النوع النبيل، فكل خلية تأخذ الغذاء إلى أختها دون أن تمدِّد أوعية بين الخلايا ... فهذه هى القرنية ... وبعدها تأتى القزحية، وتأتى العدسة المَرنة التى حار فيها

الأطباء ولأن الشبكية هى المِحْرق - مِحرق العدسة - تكون ثابتة، والمَسافة ثابتة، فكيف تقع الأشياء بحركتها العشوائية على الشبكية؟ لابد من تحريك المِحرق، أو لابد من تغيير شكل العدسة، فالعدسة يتغير شكلها فى العين من احتداب شديد إلى احتداب قليل، فمن الذى يُعطى الأمر أن يزداد الاحتداب واحد بالأف من المَكرون كى يقع الخيال على الشبكية وأنت ترى كرة تتحرك فى ملعب؟ أو ترى مركبة تنطلق من مكان إلى آخر؟ إن ما يسميه العلماء المُطابقة هو شيء تحاربه العقول، وإن شبكية العين مؤلفة من عشر طبقات، والطبقة الأخيرة فيها مائة وثلاثون مخروطا وعُصيّة، وهذه المَخاريط والعصيات تنتهى إلى العصب البصرى الذى هو تسعمائة ألف عصب ينتقل إلى الدماغ كى تقرأ الصورة !!

العين آية من آيات الله الدالة على عظمته فيها ترى الشيء بحجمه الحقيقى، وبألوانه الطبيعية، وتراها مباشرة دون وقت لإظهار الصورة.

* والسؤال الذى يدهش العقول لمَاذا جعل الله للإنسان عينين وأذنين؟

هذه آية من آيات الله الدالة على عظمته، فلو خلق الله لنا أذنا واحدة ما عرفت جهة الصوت، فقد تستمع إلى بوق مركبة من خلفك، فتأتى إلى أمامها فتدوسك، لكن فى الدماع جهازا يحسب تفاضل وصول الصوتين

إلى الأذنين، وهذا التفاضل يقدر بواحد على ألف وستمائة وعشرين جزءًا من الثانية، وعن طريقه يعرف الدماغ جهة الصوت فيعطي أمرًا إلى الأعضاء بالتحرك بعكس جهة الصوت.

إذًا أنت بالأذنين تعرف مصدر الصوت، وبالعينين تدرك البعد الثالث، فترى الطول، والعرض، والعمق، فإحدى العينين تُطبع لهَا الصورة فى الدماغ فى كل مكان، والعين الثانية فى مكان منزلق عنه، وهذا الانزلاق يكوِّن البعد الثالث، أما بعين واحدة فإنك ترى الأشياء مُسطَّحة، ولن تستطيع أن تضع الخيط فى سَمِّ الخياط، فبينهما عشرة سنتيمترات. قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ (سورة البلد:٨ ـ ١٠)

* الدماغ: ثم هذا الدماغ أعظم شيء فى الكون: ففيه مائة وأربعون مليار خلية استنادية لم تُعرَف وظيفتها بعد، الدماغ عاجز عن إدراك ذاته، فكيف يعمل؟أربعة عشر مليار خلية، قِشرية فيها التخيل، وفيها التصور، والمُحاكمة، وفيها الذاكرة، فما هي الذاكرة؟

كل واحد منا أساس خبراته الذاكرة، والخبرات متراكمة مودعة فى الذاكرة ... وهناك فقد جزئى للذاكرة، وهناك فقد كلى.

ذاكرة إنسان عاش ستين عامًا تقريبًا فيها سبعون مليار صورة، بين صور سمعية، وبصرية، وشمسية، ولا يزيد حجمها على حبَّة العَدَس، والأعجب أن هذه الصور تُرتَّب فى أماكن ثلاثة: مكان فى متناول اليد، ومكان متوسط، ومكان بعيد مهمل. فأسماء أولادك، ومهنتك، وخصائص حرفتك فى أول مكان، وهناك أشياء تحتاج إليها فى الشهر مرة فهذه فى المَكان المُتوسط، والأشياء التى لا تعجبك فإنها توضع فى مكان بعيد ... هذا كله تفعله الذاكرة، من دون أن تشعر أنت فى تصنيف الصور الداخلة إلى الدماغ وتخزينها ودرجة الاهتمام بالشيء هى التي تقوى الذاكرة، فإذا كنت مهتما بشيء نَمَت ذاكرتك وحفظته. فالآية الكريمة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أى أنشأك وأعطاك أجهزة كي تعرفه، أنشأك ودلك عليه، أعطاك قوى إدراكية، وشقَّ لك الطرق إليه، فهو الذى خلق الأذن، ألا يسمعك؟ وهو الذى خلق العينين، ألا يراك؟ ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ (سورة البلد:٧ ـ ١٠)

فأنت أمام الله مكشوف ولكن ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ واستخدام هذه الحواس فى غير ما خلقت له كفران بصنعة المُنعم، وجحود لأنعم المُتفضل.

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ (سورة الإسراء: ٣٦)

ولو بذل الإنسان هذه الطاقات الثلاث فى معرفة الله والاستقامة على أمره لدخل جنة ربه

* لذلك قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ سوف تعودون للحساب عند ربكم الذى خلقكم ونشركم، فكل حركة وسكنة، وكل عطاء ومنع، وكل غضب ورضا، وكل ابتسامة وعبوس ... كل ذلك مسجل عليكم وسوف تسألون عنه:

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (سورة الحجر:٩٢ـ٩٣)

﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ (سورة الغاشية:٢٥ ـ ٢٦)

فكل شيء فى حسابه، وكل شيء مسجل، ﴿ سنكتب ما قالوا ﴾ (سورة آل عمران:١٨١)

فالعاقل هو الذى يفكر فى هذا اللقاء، ويهيئ لله جوابا عما فعل، فهذا هو الفائز: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (سورة الأحزاب:٧١)

والأحمق هو الذى يغْفل عن هذا اللقاء، ولا يُعِدُّ له عُدَّتَه، فهذا هو الخاسر:

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (سورة المُجادلة:١٩)

* **قال تعالى:** ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (سورة المُلك:٢٥)

وهذا استهزاء منهم بوعيد الله عز وجل، فجاء الرد الإلهى:

* **قال تعالى:** ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ (سورة المُلك:٢٦)

أنا أنذركم هذا اليوم، وبذلك انتهت مهمتى، أما متى سيأتى، فهذا علمه عند الله، وهو أحد خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ

مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿٣٤﴾ ﴾ (سورة لقمان:٣٤) **فالتوقيت عند الله، أما الحدث: فواقع لا محالة، وكل متوقع آت، وكل آت قريب.**

* ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ ﴾ **أى: قريبا منهم** ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾ **الإنسان وهو شاب يكون قوى الجسم قوى البنية، وعنده آمال كبيرة ة عريضة قد يغفل عن ذكر الله حتى إذا امتد به العمر، وأصبح قريبا من المُغادرة رجع إلى الله، فالإنسان قد يخلع عمره أحيانا إذا كان فى بلدة فيها إقامته ثم أعطى مغادرة بلا عودة، فكيف إذا كان الأمر مغادرة الدنيا بلا عودة، وكل شيء سيحاسب عليه؟ فإذا غادر الدنيا وهو متلبس بمعصية، يُصعق صعْقة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا، لأنه حينما يأتيه ملك المَوت، فإما أن يرى مقامه فى الجنة أو مكانه فى النار، فالمُؤمن يقول: لَمْ أَرَ شَرًّا قط، وإن كانت حياته مفعمة بالمَتاعب، والفاسق يقول: لَمْ أَرَ خَيْرًا قط، وإن كانت حياته مفعمة بالمَلذات ... فالبطولة أن تعرف الله وأنت فى ريعان الشباب، صحيح شحيح مُعافىً فى بدنك، فتؤسس حياتك تأسيسًا إسلاميًّا: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ**

تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (سورة التوبة:١٠٩)

فمن لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة.

* **قال تعالى:** ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ ﴾ (سورة المُلك:٢٨) **لا علاقة لك بالآخرين، ولا تضيع وقتك فى القيل والقال، فتقييم الناس من شأن الله سبحانه**

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾ ﴾ (سورة الإسراء:١٧)

والكفار الذين امتلؤوا غيظا من رسول الله ﷺ فلو أهلكه الله وأصحابه معه أكان ذلك مُنجيا للكفار من عذاب الله، ولو رُحم النبي وأصحابه أكان ينجون من عذاب الله! كل إنسان محاسب عن نفسه.

* **قال الله سبحانه وتعالى:** ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٩﴾ ﴾ (سورة المُلك:٢٩) . **آمنا بوجوده، وبأسمائه الحسنى، وبصفاته الفضلى، وبكماله، وبوحدانيته، وأنه قادر على**

كل شيء، وهو القاهر فوق كل شيء، وتوكلنا عليه، فهو مصدر رحمة الكون، والتوكل محله القلب والسعى محله الأعضاء، وبالتوكل ترتاح الأعصاب.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ هناك كتاب فى الطب عنوانه "الشفاء الذاتى" وهو من أخطر كتب الطب يؤكد فيه مؤلفه أن ثلاثة أرباع الأمراض: إما أن تشفى ذاتيا، وإما أنها لا شفاء لهَا.

وأن هناك أمراضًا مستعصية مُنذ أن عُرف الطب تُشفى ذاتيا، وهذا شيء جاربه الأطباء، ثم اكتشفوا أن فى جسم الإنسان جهاز مناعة رائع، هو جهاز الشفاء الذاتى، وهذا الجهاز جوال فيه خلايا بيضاء تجوب فى أنحاء الجسم، وهى نوع من الكريات البيضاء اسمها القاتلة بالفطرة.

فالإنسان حينما يمتنع عن التدخين تذهب إلى قصباته الهَوائية وتأكل ما علق عليها من آثار. وعند هجوم مرض تتضاعف، وفى حالات نادرة تتضاعف خمسة أضعاف، وتستطيع أن تكشف شذوذ الخلايا فى نموها قبل أن تشذّ فتضبطها وتقضى عليها، وهذا متعلق بالأورام الخبيثة، لذلك أكثر المُصابين بالإيدز يصابون بأورام خبيثة ولا يُشفون منها، لأن فيروس الإيدز هو الذى يقضى على هذا الجهاز المَناعى المُدهش، ثم يقول مؤلف الكتاب: إن الرضا والهُدوء، والتوازن والحب يُقوى جهاز المَناعة،

وإن القلق والحزن والخوف والألم، يُضعف جهاز المَناعة، ومع ضعف جهاز المَناعة تنشأ الأمراض، ولا شيء كالشرك يجعل حياة الإنسان جحيما، ولا شيء كالإيمان يجعل حياة الإنسان نعيما.

* ثم يقول الله جل جلاله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ (سورة المُلك: ٣٠) ﴾ (سورة المُلك:٣٠).

يخبر الله سبحانه وتعالى أن هناك عذابًا أقرب من عذاب الآخرة ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ (سورة السجدة:٢١)

فقد يذيقنا الله بعض الجفاف، وقد تأتى سنوات عجاف، فيصاب الناس بانقطاع المِياه، ويموت النبات، وينفق الحيوان ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ الله جل جلاله، فما قيمة هذه البلدة بلا مياه؟ وما قيمة هذه البساتين بلا مياه؟ إن جَفَّت منها المِياه تُهجر، فلا قيمة للحياة بلا ماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (سورة الأنبياء:٣٠) .

الله نسأل أن يحفظنا من العذاب الأدنى والأكبر فى الدنيا والآخرة.

أ. د / السيد عبد الحليم محمد حسين

هذا الكتاب منشور في